ربيعة يدلنا بوجه من الوجوه على نوع من الحياة الاجتماعية من الصعب أن نجد له صدى فى كتب التاريخ والحضارة ، ويلم فى أثناء ذلك بما نسميه باسم الدعابة والترف وما إليهما . ولكن هذا كله لايؤلف جانبا من المفهوم الباطنى لشعر عمر بن أبى ربيعة ، وفى ذلك يقول كان عمر ابن أبى ربيعة ، أو كان شعره على الأدق يتصور المرأة على أنها مكملة للرجل ، لايستطيع أن يعيش بدونها ، كما أنها لاتستطيع أن تعيش بدونه . ولم يكن عمر يقصر هذه الصلة على جانب دون آخر ، وإنما كان يريدها واسعة متناولة جميع أطراف الحياة . ولست أشك فى أن عمر بن أبى ربيعة كان صديقا للمرأة بالمعنى الحديث الذى نفهمه لصداقة المرأة ، كان يريد لها من الحرية مثل مايريده للرجل ، وكان يريد أن تستفيد الجماعة الإنسانية من خلال المرأة كما تستفيد من خلال الرجل .

وقد أدرك طه أن عمر بن أبى ربيعة لم يقل فى ذلك كله رأيا صريحا ، فنحن لانعرف أشعر عمر بن أبى ربيعة بذلك أم لم يشعر ، ولكن الدكتور طه كان يقرأ هذا الشعر بشىء من التعاطف ، وسوف نتعرض بعد قليل للفرق بين مصطلحين اثنين : أحدهما هو البحث ، والثانى هو القراءة . والموقف الحاضر يبين كيف يكون من الصعب إقامة حدود حاسمة بينهما . ومهما يكن فإن مفهوم الصداقة أيا كان رأينا فيه لايخلو ـ فى نظر الدكتور طه ـ من شعور داخلى كامن بالحرج أو الانفصال عن المجتمع . وإذا نظرنا فيما كان يقوله عن الحياة غير المنتجة فى الحجاز استطعنا أن نستنتج أن هذه الصداقة كانت وقاء من الشعور الاجتماعى أو كانت تخفى فى بعض الأحيان آثار الاغتراب الذى يدافعه عمر بن أبى ربيعة أو يخادعه . فيخفق أحيانا وينجح أحيانا أخرى .

ولكن الدارسين لايفيدون إفادة مثمرة من طبيعة التوتر فى المجتمع ، وبخاصة إذا قرأنا شعر المديح . وربما كان شعر المديح يشغل عقل طه ، ربما لم يكن ـ بأية حال ـ مفتونا بما يبدو على ظاهر هذا الشعر من التوافق والرضا والإجلال والإشادة الصافية . كان الدكتور طه يلاحظ على كل حال شيئا غير قليل من طبيعة التوتر فى المجتمع .

ويمضى طه فى ذلك السياق فيتحدث عن الاضطرابات التى تعرضت لها الأمة العربية بعد الفتوح بحكم الفتن والثورات . والناس يقرءون شعر الشيعة والخوارج الذى لايروق ولايظهر الحياة جميلة خلابة ، فالشيعة يطلبون العدل الذى يرد السلطان إلى مستحقيه ، وشعر الخوارج ـ أيضا ـ يتوهم ماينقص حياة الناس من إقرار العدل